وتحريض. انها رواية الحوار السياسي بالدرجة الاولى، وشخصياتها لا تنبض بقدر ما تمثل موقفاً سياسياً يعبر عنه مباشرة من خلال الحوار.

فالشخصيتان الأساسيتان في الرواية «سعيد.س» وابنه «خلدون» الذي أصبح «دوف»، هما قطبا الصراع، وكل منهما يمثل حالة فكرية وسياسية، يطمح الكاتب من خلالهما وعبر حوارهما للوصول إلى إجابات حول تساؤلات مطروحة: ما هي الابوة؟ ما هو الوطن؟ ما هي القضية؟

ولا يمثل «دوف» كياناً انسانياً، بقدر ما يتمثل كحالة ايديولوجية زائفة، وكـ «وعي» تشكل في هكذا مجتمع. يقول «سعيد.س» لزوجته « – أي لحم ودم تتحدثين عنهما؟ وأنت تقولين انه خيار عادل! لقد علموه عشرين سنة كيف يكون، يوماً يوماً، وساعة ساعة، مع الأكل والشرب والفراش...» (ص ٣٨٤).

مثل تلك الشخصيات، تلك الحالات الفكرية الصارمة، تجد عالمها في بنيان روائي صارم في عقلانية، وشديد الترتيب. فالأحداث تتسلسل بانتظام، فان تفجر اللاوعي بلحظات الماضي، تقفز عقلانية الرواية لتقمع تلقائيته بأن تشير بوضوح إلى حالة الانتقال تلك. أما الحوار الذهني فيبقى هو عصب الرواية الذي يريد الكاتب أن يصل من خلاله إلى ما يريد. وما يريد أن يوصلنا اليه، يضعه أمامنا بكل وضوح ومباشرة، حيث يتوصل «سعيد.س». إلى تقرير تلك الحقيقة التي يطمح الكاتب إلى ايصالها: «والآن أنا أكثر من يعرف أن الانسان هو قضية، وليس لحماً ودماً يتوارثه جيل وراء جيل مثلما يتبادل البائع والزبون معلبات اللحم المقدد» (ص ٤١٠)

وهكذا يخوض غسان كنفاني مغامرة اخرى متقشفة، تتقارب من الرواية السابقة لكنها لا تراوح إلى جانبها. بيد أنها تظل في النهاية عملاً يرتد، على المستوى الفني، عن انجازاته في روايتيه الاولى والثانية.

وتشكل «العاشق» بداية لم تكتمل لطموح غسان كنفاني الملحمي. ففيها يعود الكاتب إلى مواصلة المغامرة الصعبة، ويقتحم تجربة روائية أكثر تركيباً، وأقل عناية بالاطروحة السياسية أو الايديولوجية المباشرة.

هنا، نجد تطويراً اسلوبياً جديداً يستفيد من الأشكال السابقة التي اعتمدها الكاتب في روايتيه الاولى والثانية ويتجاوزها.

ورغم محورية الشخصية في هذه الرواية، إلا أن أصواتها متعددة. وتتناوب الشخصيات عملية القص مع الراوية نفسه ومع بعضها البعض، وتتداخل. وهنا يتخلى غسان كنفاني عن الفاصل الشكلي التقني، بتغيير سمك الحرف الذي اعتمده في رواية «ما تبقى لكم» لتمييز الانتقال من صوت إلى آخر، لكي يدع عملية الانتقال تجري بسلاسة وتلقائية أكثر، مع انها سوف تبدو للقارىء أكثر صعوبة وتحتاج منه إلى يقظة أكثر.